هذه مسامرة إذاعية أخرى للعلامة القاضي الحاج أحمد سكيرج، ألقاها على أمواج إذاعة (راديو المغرب) تحت عنوان : كرامة الأولياء(1) أمام عجائب المخترعات

بسم الله، والحمد لله، والصلاة على مولانا رسول الله وعلى كل من والاه، والنصر والتمكين والفتح المبين، لسيدنا ومولانا أمير المؤمنين.

من لا أسميه إجلالا وتكرمة   وقدره المعتلى عن ذاك يكفينا

بل أسميه تبركا بذكر اسمه الأمجد، الموافق لوصف مسماه الممجد :

وقلما أبصرت عيناك ذا لقب   إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

وهو المتحلي بمكارم أخلاق جده عليه السلام، المتحقق بمعنى اسمه الذي يقول فيه جدنا حسان رضي الله عنه في أسمى مقام.

وشق له من اسمه ليجله   فذو العرش محمود وهذا محمد

خامس المحمديين من سلاطين مغربنا العظام، بهجة الدنيا والدين، الشاب الناشئ في طاعة مولاه، وشاكره على ما أولاه، سيدنا ومولانا محمد بن مظهر الجمال، المتحلي بحلي الكمال، سيدنا ومولانا يوسف بن مجدد الدين في السر والعلن، أبي المحاسن سيدنا ومولانا الحسن، ابن رابع المحمدين من البدور العلوية، بين الدولة العلوية، سيدنا ومولانا محمد بن مفخرة الزمان، المختار لملك المغرب من بين الأقران، سيدنا ومولانا عبد الرحمان، بن مولانا هشام بن مولانا محمد الثالث الذي قال فيه ابن عمنا محمد بن الطيب سكيرج(2) وكان راكبا معه في المركب الملكي بوادي أبي رقراق بين ثغري السلوان، سلا ورباط الفتح.

---

(1) الكرامة هي ما يجريه ا على أيدي أوليائه الصالحين من خوارق زمانية ومكانية، وقد أجمع العلماء قاطبة على جوازها ووقوعها، والدلائل على صحة ذلك كثيرة غير محصورة في القرآن والسنة الصحيحة، ولمزيد الاطلاع حول هذا الموضوع ينصح بمطالعة بغية المستفيد لأبي المواهب السائحي ص 205. وكتاب التشوف إلى رجال التصوف، لابن الزيات، بتحقيق أحمد توفيق، ص 31-81 وغيرهما من المصنفات الكثيرة.

(2) سبق التعريف به في ج 1 ص 11 من هذا التأليف.

ولما رأيت البحر في الجود آية ومن جوده الدر النضيد المقلد
سألته من في الناس علمك الندا فقال أمير المومنين محمد(3)

ابن سيدنا ومولانا عبد الله بن السلطان الذي أشاد ذكر المغرب، ولسان الثناء عليه طول الدهر معرب، سيدنا ومولانا إسماعيل، رفيع الرتب، الشهير النسب، من صميم بنوة النبوة عليها السلام.

أولئك أباء المليك محمد فمن مثلهم في الفضل بين ذوي الفضل

أبقى الله الملك والحكمة في أبنائه وأحفاده الكرام ما بقي للدوام دوام.

أيها السادة المستمعون حياكم الله وبياكم، لقد سنح لي إلقاء كلمة تحت عنوان : كرامة الأولياء أمام عجائب المخترعات، بواسطة هذا المذياع البديع، تبعا لمن أذاعوا فيه مسامراتهم القيمة، تقريظا للأسماع التي يبلغها صدا تموجات الأثير، الصادرة بهذه الآلة اللاسلكية التي برزت في عالم الاختراع.

ولا بدع في أن العلم الصحيح تستكشف به أشياء تكاد أن تعد من قبيل كرامة الأولياء، والكرامة كيف ما كانت موهبة من الحق لمن ظهرت له أو ظهرت على يده.

ولولا أن الصناعة المتقنة التي تتحقق بها المخترعات بمقتضى العلم الذي يخرج به المعلوم من القوة للفعل لما حصل الميز بين الكرامة الممنوح بها الولي بالطاعة وبين كرامة الصناعة، وحيث أن الكرامة المنسوبة للأولياء لا يحتاج فيها لصناعة، ولا تقع إلا قليلا بالنسبة للعامل بالعلم، تعين على ذوي النباهة صرف نفيس الأنفاس في التحصيل على العلم والتحريض على العمل به، فإن فضيلة العلم تتحقق في حق العامل به في إبراز المعلومات من القوة للفعل،

---

(3) سببه : جاء في شرح ابن عاشور على البردة، أن الأديب سيدي محمد بن الطيب سكيرج اجتمع يوما في مجلس السلطان المذكور، فأنشد بعض الحاضرين قول الشاعر :

سألت الندا هل أنت حر فقال لا ولكنني عبد ليحيى بن خالد
فقلت شراء قال لا بل وراثـــــة توارثني عن والد بعد والد

فقال السلطان : إن ذلك لغاية في بابه، فقال الأديب سيدي محمد بن الطيب سكيرج : لو شئت لقلت أحسن منه، وأنشد البيتين المذكورين، أنظر إتحاف أعلام الناس لابن زيدان ج 4 ص 124

وإلا كان العلم بها غير نافع(4)، فالمدار حينئذ على إخراج المعلوم للوجود ليتحقق بذلك علم العالم به، فالمعلومات إذا برزت للوجود برهنت على صحة علم موجدها.

وليس هذا المذياع الذي أحدثكم الآن بواسطته بأبدع في الإعجاب من كرامة الخليفة الثاني سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فيما ورد عنه من مخاطبته لسارية بن زنيم الديلمي(5) الذي أمره على جيش سيره إلى فارس سنة 23هـ، وكان يخطب على المنبر يوم الجمعة فقال : يا سارية الجبل، فسمعه سارية ومن معه، وقالوا هذا صوت عمر، وكانوا في بطن واد هناك، فدهموا فيه بالهزيمة، فحصل لهم الثبات عندما سمعوه استيناسا بصوته، وانحاشوا إلى الجبل الذي كانوا بالقرب منه، فنجوا من الخطر الذي كانوا يتوقعونه، ونصروا على أعدائهم، ولم تكن في ذلك الوقت هذه الآلة السماعة، فتحققت كرامته رضي الله عنه بمناداته لهم، وظهرت كرامته بمشاهدته للبعيد بغير ناظور صناعي، وعدم انحجابهم عنه مع بعد المسافة، كما ظهرت كرامة السامعين له من غير وجود هذه الآلة.

وقد اختلف علماء السير في سارية المذكور هل هو صحابي أو غير صحابي ؟ ويدل للقول بأنه صحابي ما ذكر عن الخلفاء رضي الله عنهم من أنهم لا يأمرون إلا من كان صحابيا، ولسارية المذكور من قصيدة يمدح فيها النبي صلى الله عليه وسلم هذا البيت المشهور.

فما حملت من ناقة فوق حملها أبر وأوفى ذمة من محمد

---

(4) حاول رحمه ا في هذه الفقرة اتخاذ قياس معنوي للخوارق من حيث تعدد مصادرها بين طموح العلم وقوة الكرامة، فإذا كان للعلم القوة على الإبتكار والاختراع والتطور وما يتعلق بذلك، فإن العقل الإنساني هو الأداة والقوة المتحكمة فيه، لكن الكرامة بخلاف ذلك لا يتحكم فيها العقل، وهي الأقوى من حيث الهيمنة التامة، ويريد رحمه ا من خلال هذا القياس إعطاء المراتب حقها، وتحفيز الطلبة للانكباب على دروسهم بالجدية الموصلة للانتفاع بإحدى هاتين القوتين الكبيرتين، ولا ننسى أن هذه المسامرة كانت في وقت أصاب الناس ما أصابهم فيه من التذمر، من اختلال موازين العلم والقوة بينهم وبين المجتمع الإستعماري الغربي المتحضر، مع كثرة الإختراعات العجيبة التي أذهلت الناس وحركت فيهم روح التساؤل عن الأسباب الكامنة وراء انهيار العقول المسلمة، وإخفاقها في مسايرة قوة الركب العالمي الجديد، وكعادتها في انتهاز الفرص استغلت الدول الغربية الكثير من اختراعاتها الحديثة مجالا للتبشير وما يتبع ذلك من اقتناص العقول المذبذبة الضعيفة، ولهذا كانت هذه المسامرة ومثيلاتها محاولة جادة لزرع روح التفاؤل والوعي واليقظة بين الناس.

(5) سارية بن زنيم بن عبد ا بن جابر الكناني الديلي، صحابي جليل، توفي عام 30هـ، أنظر ترجمته في الإصابة لابن حجر رقم الترجمة 3034 وفي تاريخ الإسلام للذهبي ج 2 ص 49 وفي النجوم الزاهرة لابن تغري بردي ج1 ص 77 وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 69 وفي تهذيب تاريخ ابن عساكر لعبد القادر بدران ج 6 ص 43. وانظر نص هذه الكرامة في تاريخ الطبري ج 4 ص 178، وفي التشوف إلى رجال التصوف لابن الزيات ص 72.

وهو أصدق بيت قالته العرب كما قاله في الإصابة نقلا عن المرزباني(6)، ولعل هذه الأصدقية في المديح، وإلا فقد ورد في الحديث : أصدق بيت قالته العرب قول لبيد(7) رضي الله عنه.

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

فتحمل الأصدقية فيه على ما اشتمل عليه من التوحيد.

وعلى كل حال لا موجب لإنكار الكرامات، وعجائب المخترعات، إلا عدم اتساع عارضة المنكر في المعلومات الممكنة، وانحصار عقله في دائرة الجهل بقدرة القادر على ما يشاء سبحانه وتعالى، مع أن العقل غير معقول بحبال الأوهام، في التحصيل على غير المستحيل، أو غير الواجب في حق الحق تعالى، للخاصية التي أودعها الله فيه.

فهو يقوى ويضعف بحسب ما منح الحق به الإنسان من لطيفة نورانية، وإدراك نافذ وفهم ثاقب، بما يعد في حق بعض الخلق من خوارق العادات، في فهم الأشياء على ما هي عليه، واستنباط منها، واختراع مخترعات، واكتشاف مكتشفات، بموهبة منه تعالى لمن شاء من عباده، وليست عقول الناس بسواء في قبول ما هو خارق للعادة، فإن بعض الناس لا يصدق بوجود هذه الآلة السماعة حتى يراها، ولربما بقي في شك من أمرها حتى يلمسها ويتحقق بما يتحققه به الماديون ببراهين الحس القاطع لمنازعاتهم.

ولقد ضربت المادة بالضربة القاضية من يد علم التنويم المغناطيسي(8) واستحضار الأرواح، وإن كنا لا نستبعد أن تكون هذه الأرواح المستحضرة إنما هي من لعب الجن، وبعضها من قبيل الشعبذة(9)، التي هي من فروع علوم السيميا الصناعية وغير الصناعية، الشاملة للإستنزالات النفسية وغيرها، طبق ما هو مقرر عند أصحاب هذه الفنون، ومعلوم أن عقل الإنسان قاصر عن حصر ما هو داخل في دائرة الإمكان، ولو بلغ ما بلغ في إدراك الممكنات،

---

(6) محمد بن عمران بن موسى المرزباني، مؤرخ أديب، أصله من خراسان، ولد ببغداد عام 297 هـ، وبها توفي عام 384هـ، من مصنفاته : معجم الشعراء، والمفيد في الشعر والشعراء ومذاهبهم، والموشح، والمستنير في أخبار الشعراء المحدثين، وأخبار أبي تمام، والرياض في أخبار العشاق، والرائق في الغناء والمغنين، وأخبار ملوك كندة، وأخبار أبي مسلمة الخرساني، وأشعار الخلفاء، وغيرها من المصنفات الكثيرة. أنظر ترجمته في ميزان الإعتدال للذهبي ج 3 ص 114، وفي الأعلام للزركلي ج 6 ص 319، وفي لسان الميزان لابن حجر ج 5 ص 326.

(7) لبيد بن ربيعة الصحابي الشاعر المخضرم، توفي سنة 41هـ، أنظر ترجمته في الاستيعاب لابن عبد البر، ج 3 ص 1352، وفي الإصابة لابن حجر ج 6 ص 4 وفي أسد الغابة لابن الأثير ج 4 ص 260 وفي كتاب الأغاني للأصفهاني ج 15 ص 291. وفي الأعلام للزركلي ج 5 ص 240.

(8) التنويم المغناطيسي : اسم وضع على نوم صناعي يحصل للإنسان بإدمان النظر مدة طويلة على شيء مضيء، أو بإنعام الفكرة في موضوع واحد، ولهذا النوم درجات شتى، فمن درجة يتذكر المنوم فيها اسمه ويكون مالكا لجزء من حريته، إلى درجة يكون فيها تحت تصرف منومه، وخاضعا لإرادته كل الخضوع، ومن ضمن عجائب النوم المغناطيسي التي تهدم قوانين الفيسيولوجيا هي فقد المنوم للإحساس من كل شيء يصيبه من غير منومه، فيمكنك أن تقطع جسمه إربا دون أن يتألم لذلك، ولا أن يستيقظ.

(9) الشعبذة : هي خفة في اليد تظهر ما يشبه السحر، وليست بسحر، وإنما هي من فروع علم السيميا الصناعية، وقد احترفها الكثير من المختصين، العارفين بحيلها وأساليبها الخداعية.

فإن العلم الحادث لا يدرك به جل الفلاسفة ماهية بعض المحدثات، فضلا عن موجدها الذي لا تدركه الأبصار.

ومما يبرهن على أن العقل لا يصل إلى إدراك جميع الحقائق وإن كان لا يستحيل عليه إدراك أخفاها إذا وقع منه اعتناء به أن الروح التي تحمل الحي على الشعور لا يمكن تصورها على ما هي عليه وهي محدثة، وقد أخبر الحق أنها من أمره، حيث يقول مخاطبا لرسوله عليه السلام حين سئل عنها : "قل الروح من أمر ربي"(10) ولم يقل لا يعلمها، ولم يذكرها من الخمس التي لا يعلمها إلا هو، فانكشاف الخمس وغيرها للحق تعالى لا يشاركه في علمها أحد، إلا بإعلام منه لمن شاء من رسول وولي وتعليم لغيرهما، وليس هناك ما يقضي بأن الله لا يعلم بها أحدا من خلقه، ولهذا لا يستبعد اطلاع الأطباء على ما في الأرحام إلا قصير الإدراك للمعلومات.

وهكذا الشأن في نزول الغيث وغيره، مما يعلم الإنسان وقوعه بعلامات تعلمها بمثل ما تعلم به علم غيرها، واخترع لمعرفتها آلات يعرفها جل العموم فضلا عن الخصوص، حتى كاد أن يكون العلم بما تنبئ به هذه المخترعات التي تزداد إتقانا كل حين حسب الترقي في الفنون من قبيل القطع، ولاتخطئ إلا عن خلل في حساب ونحوه وقد قال الغزالي(11) في تهافت الفلاسفة فيما برهن علماء الهيئة على صحة إمكان وجوده ما معناه : من ظن أن الرد عليهم في ذلك من الدين فقد جنى على الدين ما ليس منه، وذلك لأن مثل هذه الأشياء برهان صحة وجودها وإمكانها هو الحس، ولا يكابر في الحس عاقل، والمتعصب فيه جاهل.

ولا يزال الحكماء طامعين في الوقوف على حقيقة الروح لأنها موجودة، وكل موجود يصح أن يرى ويعلم منه على قدر ما وهبه الحق للعاقل من قوة إدراك وتمييز ومعرفة، كما أنهم لا يزالون باحثين عن ماهية الطبيعة، بما تولد عنها مثل الكهرباء التي تنسب إليها عجائب المخترعات، ولم يقفوا لها على حقيقة مع أن معرفتها غير مستحيلة، ولابد أن يقفوا عليها، وهي أحط منزلة في الوجود من مصدر معجزات الأنبياء التي قرر فيها علماؤنا قدس الله سرهم أن كل ما صح وقوعه معجزة يصح أن يكون كرامة.

---

(10) سورة الإسراء، الآية : 85.

(11) حجة الإسلام أبو حامد محمد الغزالي رحمه ا ولد في طوس سنة 450هـ، ودرس العلم على الكثير من أكابر شيوخ وقته منهم إمام الحرمين الجوني بنيسابور، فبرع في جميع العلوم وتفوق فيها، وتصانيفه كثيرة أشهرها كتابه : إحياء علوم الدين، ومنهاج العابدين، والبسيط، والوسيط، والوجيز، والخلاصة، والمستصفى، والمنخول، وشفاء العليل، والرد على الباطنية، والأسماء الحسنى، وغير ذلك، وتوفي رحمه ا يوم الإثنين 14 جمادى الثانية سنة 505 هـ. انظر ترجمته في وفيات الأعيان لابن خلكان ج 1 ص 463 وفي طبقات الشافعية للسبكي ج 4 ص 101 وفي معجم المطبوعات لإليان سركيس 1408-1416 وفي الأعلام للزركلي ج 7 ص 22 وفي اللباب لابن الأثير ج 2 ص 170. وفي شذرات الذهب لابن العماد ج 4 ص 10، وفي الوافي بالوفيات للصفدي ج 1 ص 277. وفي الفكر السامي للحجوي ج 2 ص 394 رقم الترجمة 850.

فلا غرابة إذن في خرق العادة لمن صفت مراءاة نفسه، وترقى في معناه وحسه، ومنبع ذلك كله العلم وإخراجه من القوة للفعل، ولهذا كان المقصود من العلم العمل به لتتكشف به الأشياء، وتخرج للظهور من طي الخفاء، فللعالم العامل تحقق التصرف بما علمه من الحقائق التي لا تقبل التشكيك، وكل من كان علمه يقبل التشكيك فليس بعالم.

ومما يبرهن على قصور المخترعات عن درجة المعجزة والكرامة أن المخترعات لابد من إدخال يد الصناعة فيها طبق ما قررناه، ولا تصل إلى إحضار نحو الكعبة لمحل ولي فيطوف بها أو تطوف به، وترجع لمحلها، كما حضر عرش بلقيس(12) لدى سليمان عليه السلام، وفي مثل هذا المقام تخر الطبيعة ساجدة غير قادرة على رفع الرأس، أمام المعجزة والكرامة في نقل الشيء من محله عن بعد مسافة، بالمحافظة على هيئته المرونقة، وإن كان المغناطيس يعمل بالخاصية في جذب الحديد إليه عن بعد، ولا كالبعد بين بيت المقدس وسبأ(13)، مع المحافظة على العرش الذي اشتبه على بلقيس فلم تجزم بأنه هو لما قيل لها أهكذا عرشك ؟ قالت كأنه هو.

وقد اعتمد صاحب علم الكتاب على ما لديه من اليقين بكرامة العلم، فأخبر نبي الله سليمان عليه السلام بأنه يحضره له لما قال لملأه "أيكم ياتيني بعرشها قبل أن ياتوني مسلمين ؟ قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإني عليه لقوي أمين"(14) وبين بيت المقدس الذي كان به سليمان وبين سبأ الذي به العرش مسيرة شهرين، ولولا أن سيدنا سليمان عليه السلام يعتقد أن الله تعالى صرف بعض أهل الخصوصية في الكون ما استفهم عمن ياتيه به، ولم يقبل من العفريت أن يحضره له في المدة اليسيرة التي هي واقعة قبل قيامه من مقامه، بل أراد أقل من تلك المدة لعلمه بأنه يوجد من يحضره له طبق مراده كما أخبر الحق عنه بذلك فقال: "قال الذي عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك"(15) وأحضره له بين رفع رأسه إلى السماء وبين نظره إلى ما بين يديه.

ولم يرد سليمان عليه السلام في استفهامه عمن يحضره له بأن ينقله من محله على الوجه المعتاد بحمله على الجمال وغيرها من آلات الجر ونحوها، وإنما أراد إحضاره له على وجه خرق العادة، بالتصرف الذي منح الحق سبحانه به بعض أوليائه على حسب اعتقاده عليه السلام، فتصرف الأولياء في الكون مما نطق به القرآن الذي لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيكون التصديق بذلك من العقائد التي يجب على المومن اعتقادها،

---

(12) بلقيس بنت الهدهاد بن شرحبيل، ملكة سبأ، من حمير، كانت تحكم اليمن كله، أنظر ترجمتها في تارخ الخميس لحسين بكري ج 1 ص 249 وفي نهاية الأرب للقلقشندي ج 14 ص 134 وفي الأعلام للزركلي ج 2 ص 74. وفي دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي ج 2 ص 344.

(13) سبأ مدينة يمنية قديمة، وهي عاصمة الدولة السبأية، نسبة لسبأ، وهو عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان، أنظر دائرة معارف القرن العشرين لفريد وجدي ج 5 ص 16، وفي الأعلام للزركلي ج 3 ص 76.

(14) سورة النمل، الاية : 39.

(15) سورة النمل، الآية : 40.

وإلا كان مكذبا لهذه القصة القرآنية(16) وليس في هذه القصة شيء يشوش على العقيدة السليمة في كون الحق سبحانه لا شريك له، لأن تصرف الأولياء هو من فعل الله، ونسبة التصرف لهم لا يوجب الشركة معه في الخلق لا في الإيجاد ولا في العدم، وإلا لما جازت نسبة القدرة الكسبية للمخلوق، ولا عومل الفاعل الإصطلاحي بما يصدر منه من الأفعال، فالقاتل لزيد مثلا يقتص منه لأنه هو قاتله، ونسبة القتل له ما فيها إشراك مع الحق الذي هو القاتل حقيقة.

ونحن نرى ونسمع فنعتقد أن الحق سبحانه أعطى التصرف بالتولية وغيرها، لمن أقامه في منصب الإمامة، وليس في نسبة التصرف له بالتولية وغيرها إشراك، فإذا قلنا : الملك ولى فلانا مثلا فلا يلزم من ذلك إشراكه مع الله في هذه التولية، وهكذا الشأن في غيرها، والمومن الحقاني يتحقق بأن كل شيء من الله، وتصرف العبد مجاز في صورة الحقيقة بخلاف الطبيعي من منجم وغيره، فإنه ينسب التصرف للطبيعة وللنجم حقيقة لا مجاز فيها عند مصادفة القابل للفعل والإنفعال، ولا يصدق بوجود الله معها لقصور نظره على ما لمسه بأصابع الحس في دهليز خفاء النفس، ولربما غلط بعضهم في الإعتذار عن الطبائعيين في كون الطبيعة عندهم هي نفس ما يسميه بالله المومن، تعالى الله عن الحدوث وما يصدر عن الحادث.

على أن أسرار الطبيعة هي مما أودعه الله بخلقه فيها، والأشياء الناجمة عن صحة وجودها في نظر الموحد عندها لا بها، وبالله إيجادها وإعدامها، وللعالم ببعض النتائج عنها نوع ما من علم الكتاب الذي يتصرف به في الكون صاحبه، وليس تصرفه كتصرف الحق الخالق المنفرد بالخلق، والفرق بين تصرف من له علم من الكتاب وبين تصرف الحق أن الحق تعالى يتصرف في الكون بلا واسطة، وإن اقتضت حكمته إبراز شيء بلا واسطة أو إخفائه بها فليس ذلك من احتياجه وافتقاره إليها، كما هو الشأن في الحادث والمحدثات، فإنه تعالى ليس كمثله شيء.

وكل ما يخطر في خيالك ... فربنا مخالف لذلك

ومع ذلك فإن الذي عنده علم من الكتاب حادث وعلمه حادث، ولا يتصرف في الكون إلا على قدر علمه في جزئيات قليلة، وللحق التصرف في سائر الممكنات مما وجد وما لم يوجد على سبيل الإطلاق،

---

(16) في هذه الآية الكريمة دليل على أن ما وصل إليه العلم اليوم لازال بعيدا كل البعد، عن ماهية العلم الحقيقي الذي تتفرع منه خارقة الكرامة، وذلك إذا قسناه بصاحب العلم في هذه الآية الكريمة، فلكي يأتي العالم بعرش بلقيس من أقصى بلاد اليمن إلى البيت المقدس بفلسطين لم يحتج سوى لبعض ثوان فقط، ولم يبالي ببعد المكان ولا بثقل الشيء المطلوب إحضاره، لأنه متحقق بمقدوريته على الإتيان به من باب العلم، لا من باب القوة والطاقة التي عبر عنها العفريت قبله، عندما رأى أنه قادر على الإتيان به على مدى أربع أو خمس ساعات من الزمان، فصاحب العلم لم ينظر إلى المكان ولا إلى الزمان، لمعرفته الدقيقة بأن العلم فوقهما، وهو المتحكم فيهما، ولهذا قال لسليمان عليه السلام : أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، ومن هنا يظهر للقارئ الكريم أنه لا مجال للمقارنة إذا أردنا أن نقارن بين هذا الرجل المذكور بالعلم في هذه الآية الكريمة وبين العلم الذي نعيشه اليوم رغم تطوره وتقدمه وازدهاره.

ومعلوم أن الخوارق مقسمة إلى معجزة وكرامة واستدراج(17) وغير ذلك مما لا يمكن للعالم أن يكابر فيما وجد من أفراد كل قسم منها، فالمعجزة بالتحدي، ولا تحدي في الكرامة وغيرها، وإن وجد التحدي في غير المعجزة فلا يصدر من أحد يدعي النبوة بعد انقطاعها بسيد الوجود عليه السلام، ولا يمكن إيجاد ما وقع التحدي به في حق غير نبي أبدا، لأن التحدي إنما هو لأنبياء الله عليهم السلام.

إذ معجزاتهم كقوله وبر　　　صدق هذا العبد في كل خبر

لذلك لا تجد ساحرا يدعي النبوة، ويبرهن على صدقه بالتحدي لإظهار أعماله السحرية، ولا يمكنه الثبات مع المبدأ الذي يدعيه من النبوة أصلا، بل لابد من فضيحته على رؤوس الأشهاد بما يصدر عنه مما يخالف ما يدعيه.

وقد تكون الكرامة في حق الولي، عن علمه بها وبغير علم صادرة من ذوي الخصوصية عن قصد وغير قصد، ولكن لابد من اشتراط الإيمان في صاحبها والعمل بمقتضاه، فيكون من ورثة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذين برزت عنهم المعجزات عن غير صناعة، كما تصدر الكرامة بغير استعانات روحانية وعجائب طبيعية، ولعمري أنه لا معنى لإنكار وجود خوارق عادة في الأمور المعتادة، على أنه لا يضر أيضا من استنكف من سماع الخوارق التي لم يراها أن لا يكذب بها وقد قيل :

وإذا لم ترى الهلال فسلم　　　لأناس رأوه بالأبصار

وليس العلم الذي تنخرق به العادة بمحصور في الطبيعي حتى تقتصر عليه عجائب المخترعات، فإن النفوس إذا صفت بلغت إلى إبراز ما يتراءى مما وراء الطبيعة من عالم الكون الكبير، وغيره مما يبهر العقول، ويظهر على يدها ما هو أعلى وأجل مما ينتج عن تولدات الطبيعة الخلابة، في أعمالها بالانفعالات السلابة والجلابة.

وللمتخرجين من كليات العلوم والمعارف حظ وافر من التزود من المعلومات المصححة للكرامة، ولكن جلهم في تغافل عنها(18) مع أننا نسمع عن الحكماء ونعرف بعضهم ممن توقفوا للنظر إلى ما وراء ما هو محصور في دائرة الخيال، وما يجول في أفكارهم في فسيح مجال، أفضى بهم علمهم اليقيني إلى الإستسلام للحق، بالحكم بتوحيد الموجد للطبيعة وغيرها، فأدى ذلك بهم إلى الإيمان بوجود الصانع البديع سبحانه، بنورانية عقل يزداد في هذا الحيوان الناطق استنارة لدى ملهمات الأمور.

---

(17) هذه الأقسام الثلاثة تتفق من حيث الخارق وتختلف من حيث المصدر، فالمعجزة خاصة بالرسل والأنبياء الكرام، أما الكرامة فهي ما يجريه ا على يد الأولياء والصالحين من الخوارق المشهورة بين الخاص والعام، أما الإستدراج فهو عبارة عن الخوارق الطبيعية التي يتوصل إليها المنجمون والسحرة ومن كان في شاكلتهم.

(18) هذه دعوة منه رحمه ا لأهل العلم من الطلبة المتخرجين وغيرهم، على إحياء العلوم النافعة الكفيلة لصاحبها بالخير والبركة والفلاح، والعمل بالعلم هو الطريق الصحيح الموصل لقوة الكرامة، وهذه القوة وبدون منازع هي الدليل والمقياس على مدى نجاعة العامل بعلمه، وتثبت هذا المسار أحاديث نبوية عديدة، منها قوله صلى ا عليه وسلم : من عمل بما علم ورثه ا علم ما لم يعلم، أخرجه أبو نعيم في الحلية، وهو بهذا الحث يرشد الشباب ويحفزهم على الأخذ بمعالم الدين من منبعه الصافي، ويحذرهم في نفس الوقت بلغة خفية من الدسائس الاستعمارية، الهادفة لإبعادهم عن مواضع القوة أينما كانت.

فيحصل بحسب القوة والضعف ما ينفعه، مصحوبا بواعظ من نفسه يأمره وينهاه، فيفعل بما تدعوه إليه إنسانيته بقدر شعوره، وإن كان الإنسان مجبولا على الظلم، والقوة تظهره والعجز يخفيه.

والظلم من شيم النفوس فإن تجد ذا عفة فلعله لا يظلم

فالقوة وما أدراك ما هي لا يكفها إلا عدم الإيمان بالحق، أو الخوف من الخلق، وإن الله ينزع بالسلطان ما لا ينزعه بالقرآن، ثم إن القوة إما أن تدعو إلى دين راجع لاستثمار نتائج منوطة به لأغراض دنيوية أو أخروية أو لهما معا، وإما أن تدعو إلى ضم ما لدا غير القوي باستيلاء واستعباد، وهي القوة الغشومة التي لا تراعي إلا مصالح أهلها، وعلى كلا الحالتين فالإفراط من أي قوة منهما مضر بالإنسانية، لا من جهة التدين ولا من جهة التمدن.

أما من جهة التدين فلما ينشأ عنها من التعصب الديني المفضي إلى التطاحن في سبيل اعتقاد القوي على اعتقاد الضعيف، بما تقضي به مخالفة الدين، وبالانتصار للمذهب الذي سلكه بالقوة بين المختلفين فيه، وهنا يتسع المجال لمن أراد الجولان فيما وقع من الحروب والضغط بين مختلفي الإعتقادات في المشارب الدينية واللادينية بحسب القوة، لا مع الإسلام ولا مع غيره ائتلافا واختلافا، وما ينتج عن ذلك بانتصار الحق على الباطل، وانهزام الباطل أمام الحق في ميدان أصحاب الأغراض من معتقدين ومنتقدين، في أي دين كانوا، وعلى أي مذهب فيه بالغير استعانوا، ولندع هنا المجال لكل ذي نحلة يتفكر قليلا فيما تدعوه إليه داعيته، وهو موكول إليها بقدر شعوره برائد الإنسانية في عدم اتخاذ أحد عدوا، وإن عدوا واحدا لكثير، ولا نريد أن نجرح عواطف أي شخص من المعتقدين فيما انتحله دينا، ولا من المنتقدين الذين ينكرون ما تراءى لهم خلال شعاع اعتقاداته يقينا أو تخمينا، فالكل منصوب أمام لوح مكتوب عليه بخط يقرؤه كل من نظر إليه هذا البيت :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة ولكن عين السخط تبدي المساويا

وليست مسامرتنا هذه محلا للبحث عن تأييد المذهب الحقاني من بين المذاهب التي يطعن أهل كل مذهب في سير ما تمذهب به غيره، من اعتقادات قامت لدى كل منتحل لنحلة منها حجج صحيحة في نظرياته، قاطعة لحجج الغير، كما وقع بين أهل السنة والمعتزلة مع مذاهب أخرى تجعل السني بدعيا في نظر المخالف لهم، والسني ينظر للشيعي بنظرة تكاد أن تنفذ في منافذه الباطنية، بما يأمل أن يحول به نظرياته لنحلته التي قضى حبه لها حب الخير لمن يدعوه إليها،

وهكذا شأن كل معتقد مع مخالفه في الإعتقاد من الفرق الغير المعنية في حديث : انقسمت بنو إسرائيل إلى اثنتين وسبعين فرقة كلهم في النار إلا واحدة.

على أننا لو استلفتنا الأنظار بنظرة إجمالية إلى ما تدعو إليه كل فرقة لرأينا من وراء اعتقاد المتقلدين بالدين أن مقصود الجميع الإيمان الحقيقي الذي عليه كان النبي وأصحابه عليهم السلام. وما على المومن إذا اختلفت الأهواء إلا الأخذ بالرفق في دينه، وبالرفق على مخالفه في معتقده طبق يقينه، حتى لا يضر بنفسه ولا بغيره.

فإن المتعصب لما انتحله لا يخلو جوه من كدر، ولا يسلم من ضرر، وهو دائما في أموره على خطر، وليقف قبل كل شيء على ساق الجد في امتثال ما أمره الحق به في حق نفسه أولا، ثم ما أمره به في حق أهله بمقتضى : كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته.

وليخضع أمام الشرع مطأطئ الرأس، بطيب نفس ليكون مسلما حقا، فإن المسلم من سلم الناس من يده ولسانه، فلا يؤذي أحدا في نفسه ولا في عرضه ولا في دينه حتى لا يقع فيما لا تحمد عقباه، ولا بإلقاء غيره في ذلك في دنياه وأخراه، عملا بمقتضى "ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا، إن الله يحب المحسنين"(19).

ولا يعزب عن علم كل أحد أننا في زمان القابض فيه على دينه كالقابض على الجمر، ولولا أن الحق سبحانه هيأ لخلقه في هذا العصر من وقف أمام أصحاب الأغراض من أهل اختلاف الاعتقادات مع أهل الانتقادات لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسمه، الشاملة للزوايا التي كثيرا ما أرادها بالمكر كثير من الناس، مع أن أهل الزوايا وهم أكثر المسلمين المحافظين على شعائر الدين، واقفون أمام التبشير في حفظ الله للدين.

ومن الألطاف الإلاهية بأهل المغرب أن جعل ملوكها كلهم أهل اعتقاد في الدين وأهله، معظمين لآل البيت، معظمين للأولياء، معظمين للشيوخ، معظمين للمنتسبين للحق من بين سائر الطرق، فكانوا فيها بين رعاياهم كالشموس في الأفق، وما من أحد منهم رضي الله عنهم إلا وله يد بيضاء في طريقة واحدة أو أكثر، مسالما لبقية سائر الطرق على هدى من ربه، ولربما إن سنحت لنا الفرصة نذكر من أسلاف ملكنا الحالي سيدنا ومولانا محمد أيده الله ما لهم من شديد التمسك بحب أهل الله والطريقة التي كانوا عليها(20).

---

(19) سورة البقرة، الآية : 195.

(20) اعتناء الملوك العلويين بالجانب الصوفي لم يقتصر يوما عن سلطان دون آخر، بل كلهم وبدون استثناء لأحدهم، فقد كانت لمعاليهم اليد البيضاء في حق هذه الزاوية أو تلك، ولا زالت الكثير من إنجازاتهم في حق هذا الجانب قائمة شاهدة على مدى تعظيمهم واحترامهم لأولياء ا الكرام، وللطريقة التجانية نصيب لا يستهان به من هذا التقدير والتبجيل، يبتدئ بالإقبال الكبير للسلطان مولانا سليمان على الشيخ أبي العباس سيدي أحمد التجاني رضي ا عنه، وكذلك اعتناء السلطان مولانا الحسن الأول بمجموعة من أكابر أهل هذه الطريقة، وفي مقدمتهم العلامة الولي الصالح سيدي محمد العربي بن السائح رضي ا تعالى عنه، ومن باب هذا التقدير كذلك اهتمام وتعظيم وإقبال السلطان مولانا عبد الحفيظ على صاحب هذه الرسائل العلامة القاضي العارف بربه سيدي الحاج أحمد بن الحاج العياشي سكيرج رحمه ا ورضي عنه.

من عقد الأشعري وفقه مالك وفي طريقة الجنيد السالك(21)

والتاريخ حافظ لكل واحد منهم قدس الله روحهم، ما لهم من المآثر، في ذلك مما لا يخالف فيه إلا مكابر، وقد حمى الله بهم الدين فلا زال والحمد لله محفوظا، ولن يزال بحمد الله على ما هو عليه بوجود إمامناملك البلاد أدام الله سعادته محفوفا في رداء العافية، ودامت كلمة باقية في عقبه الملحوظ بعين العناية إلى يوم التناد.

أحمد السكيرج
وفقه الله

(21) البيت الرابع من المنظومة الفقهية المشهورة (المرشد المعين على الضروري من علوم الدين) للعلامة سيدي عبد الواحد بن عاشر المتوفى عام 1040هـ.